

في بعض مَقَوِّمَاتِ الْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْأَمَازِغِيَّةِ الْمَغْرِبِيَّةِ دراسة وصفيَّة تحليَّة لِبَعْضِ حِكَايَاتِ الْأَطْلَسِ الْمُتَوَسِّطِ الْمَرْكَزِيِّ

In some of the Moroccan Amazigh Folk Story Components
An analytical descriptive study of some tales of the central atlas

د. محمد أمحدوك

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين بني ملال خنيفرة (المغرب)

Amahdouk81@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/11/17

تاريخ الإرسال: 2020/10/31

ملخص:

على غرار كلِّ شعوب العالم، عرف أمازيغ الأطلس المتوسط المركزي الحكاية الشعبية بمختلف أشكالها وأنماطها، وتناقلوها جيلا بعد جيل. لكن، وعلى الرغم من كونها تجسد أحد أبرز مظاهر الثقافة الأمازيغية الشفهية، إلا أنها ما تزال موضوعا بكرًا، وفي حاجة ماسة إلى البحث الأكاديمي الرصين. لا سيما أنها باتت تتعرض في العقود الأخيرة لأخطار كثيرة تهدد استدامة أدائها لأدوارها ووظائفها؛ حيث أضحت استحضارها رهين مقامات ضيقة ترتبط أساسا بالمناسبات الثقافية والفنية والفولكلورية. وفي ظلّ هذا الانحسار الكبير تأتي دراستنا لثمين هذا الرّاسمال الرّمزيّ، والتّفخ في روحه، وذلك عبر التّنبش في خصائصها ومضامينها ودلالاتها... والوقوف على مدى ارتباط الإنسان الأمازيغيّ الأطلسيّ بهذا الموروث المحلّي العريق نفسيًا وبيداغوجيًا وترفيهيًا ...

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية الأمازيغية، الأطلس المتوسط المركزي، الأدوار والوظائف، الشّكل والمضمون.

Abstract:

Like all the people around the world, the Berbers of the Central Middle Atlas knew the popular tale in its different forms and features, and passed it on from generation to another. Although it embodies one of the most striking manifestations of oral Berber culture, it is still a virgin subject and in urgent need of in-depth academic research. Even more so since during the last decades, it has been seriously threatened, and will inevitably reduce the sustainability of the exercise of its roles and functions; as its evocation becomes the object of narrow sanctuaries linked to cultural, artistic and folkloric events. In light of this great decline, this study comes to value this symbolic capital, and to blow into its soul, through exhumation in its characteristics, contents and connotations ... and to stand on the extent of the Atlantic Amazigh person's connection to this ancient local heritage psychologically, pedagogically and entertaining

keywords: The popular Amazigh tale, Middle Atlas Central, The roles and the functions, Formal and content components.

تقديم:

لكونها نتاجا فكريًا أبدعه المخيال الشعبيّ الأمازيغيّ خلال مراحل تراكميّة مائزة من تاريخه الطويل، تتخذ الحكاية الأطلسيّة منزلة القلب من الموروث الثقافيّ المغربيّ، ومن ثمّ يمثّل استمرارها شاهدا على تمسك الإنسان المغربيّ بهويّته ووجدانه الجمعيّ وآية على تماسك بنائه الاجتماعيّ، الأمر الذي يجعلها تفترض دوما العناية والاهتمام، لا سيّما في العقود الأخيرة، حين أمست تعرف انحسارا كبيرا بسبب ارتفاع ضجيج الثورة المعلوماتيّة وتعالى صرخات العصرنة في الفنون، فضلا عن غلبة الثقافات الوافدة مع رياح العولمة ومجتمع المعرفة. ولذلك تأتي هذه الدّراسة لرفع جانب من "الظلم" الذي لحق هذا الجنس الأدبيّ والاعتراف له بالجميل، لما يقوم عليه من رموز اجتماعيّة راقية وعلامات فنيّة منسيّة تعكس ثقافة الإنسان الأمازيغيّ بالأطلس المتوسّط المركزيّ، ومن ثمّ فهي تسعى إلى تقديم قراءة فاحصة في وضعها الرّاهن، من خلال البحث في خصائصها وأماطها ووظائفها، استنادا إلى بعض الحكايات السّارية في المنطقة، والتي تمكّننا من جمعها وتدوينها. ويمكن بلورة إشكاليّة هذه الدّراسة من خلال التّساؤلات الآتية: ما خصائص الحكاية الشعبيّة الأمازيغيّة بالأطلس المتوسّط المركزيّ؟ وكيف يمكن تصنيفها وتحديد أتماطها؟ وما الدّلالات والوظائف التي يكشف عنها محتوى أحداثها ولين بنائها السّردية؟

1- الموجّهات النظرية والدراسات السابقة

لفحص إشكالية الدراسة، ولكون البحث في الموضوع يفتح على العديد من القضايا الثقافية والتاريخية والحضارية... كان حريّا بنا التوقّف عند بعض الجوانب الأساسية التي ستثير بعض غيابهات، انطلاقاً من مفهوم الحكاية الشعبية الأمازيغية، ووصولاً إلى ثلّة من الدراسات السابقة التي بحثت في زواياها المظلمة.

1-1- في مفهوم الحكاية الشعبية الأمازيغية

لما كانت "المصطلحات مفاتيح العلوم"⁽¹⁾، سنحاول تحديد مفهوم "الحكاية" تحديداً لغويّاً ومُصطلحياً مستوفين جميع معالمه وتفصيله. وسنقوم بدايةً باستكشاف حقيقته الدلالية، كما بسطتها بعض المعاجم اللغوية.

أ- الحكاية لغة واصطلاحاً

الحكاية عند ابن منظور من حكي يحكي كقولك حكيت فلانا وحاكيتته: فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله⁽²⁾. وعند ابن سيده الأندلسي: "حكيت فلانا وحاكيتته فعلت مثله أو قلت مثل قوله، وما احتكى ذلك في صدري أي ما وقع فيه، وحكى يحكي الخبر حكاية أي وصفه، وحكى عنه الكلام، أي نقله"⁽³⁾. وفي المعجم الوسيط، حكى الشيء حكاية: أتى بمثله، وحكاها شابهه في القول أو الفعل أو غيرهما، وحكى الحديث نقله. والحكاية: ما يُحكى ويُقصّ، وقع أو نُحِئِل. والحكاية: اللّهجة؛ تقول العرب: هذه حكايتنا، والحكيّ: النّمامة المهذار⁽⁴⁾. يتبيّن من خلال هذه التّحديدات المعجميّة أنّ المدلول اللّغويّ للفظّة حكاية شاسع وفسيح؛ إذ ينوس بين المماثلة، والتكلم، واللّهجة، ووصف الوقائع الحقيقيّة أو الخياليّة. فماذا يقصد منها اصطلاحاً؟

الحكاية، في الاصطلاح النّقدي، هي الخبر الذي يتّصل بحدث قدّم ينتقل عن طريق الرّواية الشّفويّة من جيل إلى جيل، أو لنقل على لسان نبيلة إبراهيم، هي خلق حرّ للخيال الشعبيّ ينتج حول حوادث مهمّة وشخوص ومواقع تاريخيّة⁽⁵⁾. إنّها ذلك الأثر القصصيّ الذي ينتقل مشافهة، ويروي أحداثاً خياليّة لا يعتقد راويها ومتلقّيها في حدوثها الفعليّ وتنسب عادة لبشر وحيوانات وكائنات خارقة، وتهدف إلى التّسلية وترجحة الوقت والعبرة⁽⁶⁾.

وينبغي، في هذا السياق، تحديد المقصود بمصطلح "الشعبية"، وهي الكلمة المنسوبة إلى الشعب: الشعبي (المنسوب إلى العامة أو إلى السواد الأعظم من الناس). غير أنّ هذه النسبة لا تؤدّي المدلول الاصطلاحيّ الدقيق للحكاية الشعبية، لأنّ المراد بالشعب خاصّة النّاس وعامّتهم، والمراد بـ"الشعبية" هو عامّة الشعب وليس الشعب عامّة، وعامة النّاس خلاف الخاصّة، فيكون مدلول "الشعبية" محدّدا في طبقة من النّاس دون الخاصّة وفوق العامّة. ومن ثمّ نستنتج أنّ للخاصّة آدابها وفنونها وأمثالها، وكذلك الأمر بالنسبة للعامّة حيث يحتفظون لأنفسهم بأنشطتهم وآدابهم وفنوتهم... ولذلك وُسمت الحكاية بـ"الشعبية" لارتباطها بمخيال الشعب إبداعا وخلقا وسردا، فاستوعبت ذلك الحشد الهائل من السرد القصصيّ الذي تراكم عبر الأجيال، والذي حقّق بواسطته الإنسان كثيرا من مواقفه ومعارفه، وليس وقفا على جماعة دون أخرى، ولا يغلب عليها عصر دون آخر⁽⁷⁾. ومن الباحثين من يرى أنّها بُيّت على الواقع طورا، وعلى الخيال طورا آخر، وعلى الخيال الممزوج بالواقع طورا ثالثا⁽⁸⁾، وهو حال الحكاية الشعبية الأمازيغية.

ب- مَفْهُومُ الْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ

عديدة هي الإشكاليات التي تواجه الباحث في الحكاية الشعبية عامّة، والأمازيغية خاصّة، ولعلّ أولها تلك المتعلقة بالمصطلح نفسه (التسمية العلمية المحدّدة لشكل التعبير الشفهيّ)، إذ تتبادر إلى الذّهن تسميات ومصطلحات عدّة، يصعب إسقاط أيّ منها فهل يطلق عليها "جنس" أم "نوع" أم "عرض" أم "فن"؟ لا سيّما أنّ كلّ مصطلح من هذه المصطلحات قد اتخذ مدلولات يغلب عليها التعميم أحيانا، والخلط بينها أحيانا آخر. ومن ذلك أن أطلق بعض الباحثين مثلا على الخرافة سمة جنس أدبي⁽⁹⁾، في حين لا تعدو تكون نمطا أو نوعا خاصّا عند آخرين، بينما لا تتحدّد عند البعض الآخر بهذا ولا ذاك، بقدر ما هي موضوع من الموضوعات التي تفتح عليها الحكاية الشعبية عامّة. وهكذا صارت مسألة تعريف الحكاية الشعبية إشكالية حقيقية في ذاتها.

وبالاستناد إلى ما قدّمه صاحب اللّسان في مادّة "جنس"⁽¹⁰⁾، وإلى ما جاء به "المعجم الوجيز"⁽¹¹⁾ في المادّة نفسها، يبدو أنّ هذا المصطلح هو الأولى بالاستعمال في تحديد طبيعة الحكاية الشعبيّة، لأنّه أعمّ من مصطلح "نوع"؛ ومن ثمة يمكن إبعاد مصطلحي "فنّ" و"غرض"، ما دامت سياقات استعمالهما أبعد ما تكون عن هذا المجال⁽¹²⁾. وهو ما سبق وعبر عنه سعيد يقطين حين قال: "ولمّا كان الجنس اسما جامعا لأنواع متعدّدة مشتركة من حيث انتماؤها إلى جنس محدّد، كانت الجنسيّة هي الخاصيّة الثابتة التي تجعل أنواعا متعدّدة تندرج ضمن جنس معيّن"⁽¹³⁾. ولا تختلف الحكاية الشعبيّة الأمازيغيّة كثيرا عن منظومة الحكايات العالميّة، فهي تقوم على البناء الشكليّ نفسه الذي رسمه لها النقاد في مختلف الآداب الشفهيّة؛ حيث تنطبق عناصره ومحدّداته على الحكاية الأمازيغيّة، كما تنطبق على الحكايات العالميّة، ومن ذلك ما أسماه محمد أفضاض "موثيق الحكيم": "الرّاي، والمتلقّي، والوظيفة، والعتبات، والقفل، والبنية، والتناصّات، والتقاطعات الحكائيّة"⁽¹⁴⁾. وتستجيب أيضا لما اقترحتها مدرسة غريماس (Greimas) في أن ينطلق الدّارس من المقطوعة القصصيّة، والمقطع أو المتواليّة السردية حزمة وظائف تتألف فيما بينها، فتؤلّف وحدة معنويّة كبرى، حيث يتميّز المقطع أو المتواليّة بالمواصفات الثّلاث التّالية: الاستقلاليّة التّسبيّة للأحداث، والتّحوّلات المكانيّة، وتغيير الشّخص في الفعل القصصيّ⁽¹⁵⁾.

غير أنّ مصطلح "الحكاية الشعبيّة" ما يزال يثير في السّاحة الثقافيّة الأمازيغيّة جدلا فكريّا كبيرا، وذلك راجع إلى اختلاف المصطلحات التي تشير إليه من منطقة إلى أخرى، ومن أمثلة ذلك: "تأمينيّة" (ج. "إميّن" أو "أميّن" أو "تيميّن") التي تؤدّي في الوقت نفسه معنى الحكاية، والخرافة، والأسطورة، والتّادرة، والنّكتة... فضلا عن اختلاف الدّارسين فيما إذا كان المصطلح أمازيغيا أصيلا أم دخيلا⁽¹⁶⁾. حتّى إنّ أهمّ المعجمات الأمازيغيّة في المغرب تشهد اللبس ذاته والفوضى المصطلحيّة نفسها؛ حيث نجد في المعجم العربيّ الأمازيغيّ: "حكى، قصّ: يُقَيَس، الحكاية = تَأَنَّقِسْتُ، ج. تَيَنَّقَس، وُؤَمِيَّة ج. وُؤَمِيْن، تَأَنَّقُوسْتُ، ج. تَيَنَّقَاس، تَيَمَزْرِيْتُ، ج. تَيَمَزْرَا، تَيَمِيْنِدِيْتُ، ج. تَيَمِيْنِدِيُوِيْن

تَادِيَانْتْ، ج. تِيدْيَانِينْ⁽¹⁷⁾. وهو ما نجده أيضا في المعجم الأمازيغي - الفرنسي للأطلس المتوسط لميلود الطايفي، حيث فتح باب الحكاية لتدخل منه أجناس أدبية كثيرة:
- **Lqisat**: histoire, conte, récit, affaire, fait divers, (Iqist n wuššen d yinsi (le conte du chacal et le hérisson)⁽¹⁸⁾.

وقد أُلحقت بها مصطلحات أخرى كثيرة لتعبّر عن المضمون نفسه، مثل: "تَالَأَسْتْ" (من الفعل "أَلَسْ": كَرَّرَ (raconter))، فضلا عن "لُحْدِيْتْ" و"تَاَحَادِيْتْ"، و"تَانْقِيْسْتْ" و"لُقِيْسْتْ" السائدة في التتوع اللغوي الأطلسي المركزي، و"تَامَشَاهُوتْ" الرائج استعمالها لدى أمازيغ القبائل بالجزائر، حيث يقولون عن الأمثال المستنبطة منها: "تَوَالِيُونْ دُرِينْ" (الأقوال السائرة أو الحية). وبالتسبة للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية المغربية، لم يحسم بعد في المصطلح النهائي للحكاية؛ إذ أورد لها "أُمِيْنْ" (ج. أُمِيْنْ) و"تَاَحَاغِيْتْ" (ج. تِيْحُوْجَا) و"تَالَأَسْتْ" (ج. تَالَأَسِينْ)، و"تَانْقُوسْتْ" (ج. تِيْنْقُوسِيْنْ)⁽¹⁹⁾، بينما خصص للحكاية العجائبية (Le conte merveilleux) المصطلح المركب: "تَالَأَسْتَامْكُونْتْ" (/tallast / (tamgunt/).

1-2- جَوَانِبْ مِنْ تَارِيخِ الْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْأَمَّازِيغِيَّةِ

عديدة هي الإشارات التاريخية التي تثبت مدى اهتمام الأمازيغ بالحكاية الشعبية عديدا على أحفادهم باللغة الأمازيغية حكاية شعبية ذائعة الصيت أوردتها الملك الفيلسوف "يوبا الثاني" في كتابه "البيبيكا" تسمى "الأسد الحقود"⁽²⁰⁾. بيد أن هذا الجنس الأدبي لم تعرف التدوين بشكل بارز إلا في فترة متأخرة (ق. 19م) على يد مستمزغين أوروبيين، مثل: رونييه باسيه (René Basset)، وإميل لاووست (Emile Laouste)، وأرسينرو (Arsène Roux)، والقس ريفيير (Rivière)، ولوبلان دو بريوا (Leblan de Prébois)... ومع باحثين أمازيغ في نهاية القرن الماضي، مثل: عبد العزيز بوراس في "وُمِيْنْ نْ حُمو وَنَامِيْرْ"، ومحمد الراضي في "تِيْحِيْدْجَا"، وعائشة بوسينية في "تِيْحُوْجَا نْ

رَّيفٌ" ... وعلى مستوى الأطلس المتوسط المركزي، قليلة جدا هي تلك الدراسات التي حاولت جمع وتدوين ودراسة الحكاية الشعبية بهذه المنطقة، فلم نعرث إلا على الأطروحة التي تقدّمت بها فائزة جمالي سنة 2016م لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات من كلية الآداب سايس - فاس (الحكاية الشعبية عند إيشقيزُن)، والكتاب "مداخل إلى الأدب الأمازيغي بالأطلس المتوسط" لسعيد مولودي⁽²¹⁾، فضلا عن قلة قليلة من المقالات المنشورة على مستوى المواقع الإلكترونية وبعض المجلات الورقية، مثل: "الحكاية الشعبية الأمازيغية بالأطلس المتوسط" لعيسى نصري، و"قراءة في الحكاية الشعبية الأمازيغية الأطلسية حكاية القنفذ والذئب نموذجاً" لعبد الرحمان باحوس...

2- المَقَوَّمَاتُ الكُبْرَى لِلْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ الأَمَازِغِيَّةِ الأَطْلَسِيَّةِ

تتفق مختلف الدراسات التي اهتمت بالحكاية الشعبية العالمية على أنّ من أبرز خصائصها العراقة، والتداول الشفهي، ومجهولية المصدر، وصعوبة تحديد موطن نشأتها الأول...، وهو ما نجد صداه أيضا في الحكاية الشعبية الأطلسية؛ حيث نجد الراوي يبدأ حكايته دائما بعبارات من قبيل: "أُرْ تَقْمِيسُنْ يَمْزُورَا" (يحكى الأولون أو السابقون)، "نَانُ يَمْزُورَا" (قال الأولون أو السابقون)، نَانُ -اشْ (قالوا لك)، نَانُ ويسْ اغْ -زُويْزِينْ (قال الذين سبقونا)...، و"نَانَاكْ أَيْتْ نَانَاكْ" (قال لك أهل القول). ومن أجل بسط سماتها المميّزة الكبرى وخصائصها البارزة، اعتمدنا على حزمة من أشهر الحكايات بالمنطقة وسقناها من خلال منظورين متكاملين، شكليّ ومضمونيّ.

2-1- بِطَاقَةٌ تَقْدِيمِيَّةٌ لِلْحِكَايَاتِ المَدْرُوسَةِ

يقوم متن هذه الدراسة على حزمة من الحكايات الشعبية الأمازيغية السائرة في الأطلس المتوسط المركزي، والتي تمّ استقاؤها من عدّة مقابلات شفهيّة أُجريت على مستوى منطقة البحث، وتأكّد منها البحث بعد رجوعه إلى نص الأطروحة التي تقدّمت بها فائزة جمالي لنيل الدكتوراه في اللسانيات من كلية الآداب سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس⁽²²⁾.

| أهميتها ووظيفتها | شخصياتها | | نوعها | الخصائص الحكايات |
|---|---|---|----------------------------|--|
| | الثانوية | الرئيسية | | |
| وظيفة ترفيهية - بيداغوجية (التحلييا لأخلاق الفاضلة) | الأم، وزوجة الأب والأخت، والجنينة الأولى، والجنينة الثانية | الأب والبنت | خرافية غرائبية هزلية | "أدجنون" (الجن) |
| وظيفة بيداغوجية أخلاقية (جزء الإحسان هو الإحسان، وجزء الشتر شر كبير) | الأهل، والابن وصديقة المرأة | المرأة والأسد | خرافية هزلية | "إزم د نمطوط" (الأسد والمرأة) |
| وظيفة بيداغوجية إنسانية ترفيهية | قريبة الأب، والحصان والجنينة "تاريز" وعصفورة القصب والبغال، والأحصنة | البنت والأب والأسد | خرافية هزلية | "تأخضيت ن وغانيم" (عصفورة القصب) |
| بيداغوجية - أخلاقية (إنما الأعمال بالتيات والانتصار الدائم للخير) | القاضي، وأب "واز نيت" (ذو التية السيئة) | "بونييت" (ذو التية الحسنة) وواز نيت (ذو التية السيئة) | اجتماعية جادة واقعية | "بونييت د واز نيت" (ذو التية الحسنة وذو التية السيئة) |
| ترفيهية (التسلية والمتعة) | الرُّحْل، والرُّعاة، والدُّببة (زُوب) | الدُّب (عَمي غلي) والحمار | خرافية هزلية | "أوشن د وعيول" (الدُّب والحمار) |
| بيداغوجية ترفيهية - نفسية (التسلية والمتعة) | الوحوش، والعصافير والعصفورة الشبيهة، والفيل والدُّب، والخروف، والزاعي والحداد، والجرو، والفرس والكلب، والحصاد | عصفورة الغنم | خرافية هزلية | "تأخضيت ن وُلِي" (عصفورة الغنم) |

| | | | | |
|--|--|--|-----------------------------|--|
| بيداغوجية، أخلاقية ترفيهية | الملك، وأبناء الخطاب وزوجة الملك، والضيوف | الخطاب وزوجته (عيشة) | اجتماعية حادثة واقعية | "تأمطوط ن ونزدام" (زوجة الخطاب) |
| بيداغوجية، ترفيهية، نفسية (التسلية والمتعة) | الأب، الأم، الأخت الجنية، الملك، الأمير | البطلة، زوجة الأب الأخت الملك | خرافية هزلية | "تأمفراط ن ييغد" (كانسة الرماد) |
| بيداغوجية - ترفيهية أخلاقية | ----- | الأصدقاء الثلاثة | اجتماعية حادثة واقعية | "مراض ن يمدوكال" (الأصدقاء الثلاثة) |

(ج.1): جدول تقديمي للحكايات الشعبية الأطلسية المدروسة (عينة الدراسة)

2-2- الخصائص الشكلية للحكاية الأمازيغية بالأطلس المتوسط المركزي

فضلا عن خصيصتي الشفاهية والعراقة اللتين تتميز بهما الحكاية الأمازيغية الأطلسية تتسم أيضا بخصائص شكلية كثيرة مرتبطة بمجموعة من الوسائط السيميولوجية التي تيسر سيرورة تحصيل أبعادها التصورية والوظيفية، وبجزمة من الأكسسورات الدرامية التي تحفز ديناميتها السردية وتمططها توترا وتأزما، فضلا عن سمات شكلية أخرى عديدة على غرار كل الحكايات الشعبية العالمية وباقي الأجناس الأدبية التي تشاكلها، ومن أمثلة ذلك:

- **الاقتضاب والبساطة والاعتماد على اللغة الأم:** غالبا ما تكون هذه السمة آلية خاصة للتعريف وتعليم التنوع اللغوي السائد في إحدى مناطق الأطلس المتوسط المركزي (إشقين، وإزابان، وإمزابن...). وذلك في إطار قالب لغوي بسيط ومعجم موشوم بالمحلية والمباشرة.

- **الطابع الشفهي ومجؤولية المؤلف:** لما في ذلك من مرونة وسرعة الانتقال، كانت الرواية الشفوية صفة ملازمة للحكاية الشعبية الأمازيغية الأطلسية، وهو ما يزيد المستمع

تأثراً وانفعالا لأنه يستعين بملاحم وجه الزاوي والإيماءات والأساليب الجاذبة التي يعتمد عليها. وهي ليست ملكا خاصا، بل مجهولة المؤلف، عريقة ضاربة في القدم، وجدت بوجود الإنسان⁽²³⁾. ولذلك تشوُّها الزيادة والتقصان، ومنذورة للتلف والتسيان، عند فقدان من يحتفظ بها في ذاكرته. وقد صدق في ذلك القائل: إنَّ فقدان عجزوز في قارتنا الإفريقية هو بمثابة إحراق مكتبة بأكملها⁽²⁴⁾.

• **الانتشار والذَّبوعُ:** سواء في أوساط العامة والخاصة، أو بين المثقفين والأميين، أو بين الصغار والكبار...

• **الالتزامُ بنهايةٍ سعيدةٍ على مستوى بنية الأحداثِ المسرودةِ (انتصارُ قيمِ الخيرِ على الشرِّ):** ففي حكاية "تأخضضتُ نْ وغانيمُ" (عصفورة القصب) تتغلب البطلة على سطوة الأسد، وفي حكاية "بُوئيتُ دُ وَاَزُ نيتُ" (ذو النية الحسنة وذو النية السيئة)، ينتصر "بُوئيتُ" (ذو النية الحسنة) على "وَاَزُ نيتُ" (ذو النية السيئة)... وبذلك تذهب في بنيتها المورفولوجية مذهب الحكايات الشعبية العالمية.

• **الأحداثُ في الأغلبِ غرائبيةٌ - عجائبيةٌ:** حيث تعتمد إلى توظيف الكائنات الخيالية والقوى الخارقة والأبطال المثاليين ك"تاغيلتُ" (الغولة)⁽²⁵⁾ و"تاريزُ" (الغول أو الوحش الضاري)... وتمثل الصورة الشريرة والشخصية الهدامة ذات الحلقة البشعة التي تثير النفور والرهبنة والخوف. وتحيل إلى انخراط الإنسان الأمازيغي الأطلسي في واقعه الاجتماعي ورغبته العارمة في إصلاحه، حتى بالهروب إلى الفضاء السردِي للحكاية الشعبية، حيث يمكنه أن يحقق ذاته بالانتصار على كائناته المخيفة والظالمة، كما تحيل على ذلك شخصيات حكاية "تأخضضتُ نْ وغانيمُ" (عصفورة القصب) وحكاية "أدجنونُ" (الجن). وتكون تلك الشخصيات مستعارة من الواقع ومقتنعة بزيِّ عجائبي حتى لا يقع الزاوي في صراع وتصادم مع الشخصيات الحقيقية الواقعية (الحكام مثلا).

• **الاختتامُ بمثلٍ شعبيٍّ محليٍّ:** من أمثله: "تَرَا نيتُ وَاَزُ نيتُ" (يفوز دوما ذو النية الحسنة)، و"وَنَّا تيرانُ كُولُ دَاتيزري كُولُ" (الذي يريدنا كلها يتركها كلها) في حكاية

"بُونَيْتْ دُ وَاَزْ نَيْتْ" (ذو النية الحسنة وذو النية السيئة)، و"عَاسْ أَيْنْ دُ يُودَجَا وَسْ كَمِي - تَمَّ أَحْيُوضْ" (هذا نتاج تربيتك الفاسدة) في حكاية "أَدْحُونْ" (الجن)، و"دَايْتَجِيَلَا تُرُو جَارِيخْ وَزْدَا يُتْحِي كَارْ وَوَالْ" (يبرأ أثر الجرح ولا يبرأ جرح الكلام) في حكاية "إِزْمُ دُ تَمَّطُوطْ" (الأسد والمرأة).

● **الأنسنة والتشخيص:** وهو الأسلوب الذي تستند إليه غالبا الحكاية الشعبية الأطلسية على غرار حكايات ألف ليلة وليلة ولافونتين وكليلا ودمنة، ومن أمثلته: أنسنة الحيوانات في حكايات "تَاخْضِيضْتْ نْ وَغَانِيمْ" (عصفورة القصب)، و"أَوْشْنْ دُ يِينْسِي" (الذئب والقفند)، و"تَاخْضِيضْتْ نْ وَلِي" (عصفورة الغنم)...

● **استحضار البعد الديني الإسلامي:** إضافة إلى حكايات الأنبياء والرسل (يوسف وموسى، وعيسى، ونوح... عليهم السلام)، يحضر النفس الديني الإسلامي على امتداد الحكاية الشعبية الأمازيغية؛ إذ يبدأ الراوي حكايته وينهها بذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم، وَرَا - عْ يُتْكَأْ رَبِّي سَكْ أَيْتْ لُقَيْسَاتُؤَلَا أَيْتْ لَمْحْضِيَاتْ" (ندعو الله أن لا يجعلنا من أهل الأكاذيب والترهات)، و"نُزُورْ رَبِّي وَرُ نُزُورْ أَيْتْ لُقَيْسَاتُؤَلَا أَيْتْ لَمْحْضِيَاتْ" (نبدأ باسم الله ولا نبدأ بأهل الأكاذيب والترهات) و"أَسِيَا - تْ - اَعْ فَاتْحَا" (لنرفع سورة الفاتحة)، و"أَكْ - نْ يِعَاوْنْ رَبِّي" (أعانكم الله) و"زَالَا - تْ خَفْ نَبِي" (صلوا على النبي)، و"أَيَا - دْ أَكْ وَشَا رَبِّي" (هذا ما أتانا سبحانه وتعالى)... زيادة على حضور معجم ديني طافح (الصلاة، والصوم، ورمضان، والسحور والرزق، والصدقة، وضيف الله، وسيدي ربي، والتبي محمد صلى الله عليه وسلم...).

● **الشخصيات خليط من الإنس والجن والحيوان:** كانت رغبة الإنسان الأمازيغي الأطلسي في التغيير ملحة، الأمر الذي دفعه إلى تبني شخصيات خارقة وغريبة وبأسماء أغرب، وجعل لها عالما مجهولا يجري فيه الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، رغم أنه لا يرتبط بواقع معروف، ولا بعصر محدد إلا من حيث الرؤية ومتعة السرد، وذلك راجع لطبيعة القصة التي تتجاوز البعدين القومي والمحلي معا. ومن بين هذه الشخصيات:

"تَارِيْزٌ"، و"تَاغِيْلَتْ"، والأسد، والقنفذ، والذئب، والحمار... فضلا عن شخصيات آدمية تحضر تارة بأسمائها الشخصية المعروفة (عيشة، ومحمد...)، أو من خلال وظيفتها الاجتماعية (الأب، والأم، الزوجة، القاضي، الملك...).

• **الفضاء المكاني عجائبي-بدوي قائم على الأنشطة الفلاحية:** يتجلى ذلك في سيادة أمكنة ذات طابع قروي - جبلي (المرعى، والمرج، والغابة، والسفح...).

• **زمن الرواية مرتبط بليالي السمر والاستعداد للنوم:** لأن النهار كان وقت الجد والعبادة (وقد يكون هو السبب نفسه الذي جعل الأفارقة يسمون الحكاية الشعبية "كلام الليل"). ولما كان السارد في الأغلب الأعم أنثى، نظرا للدور الكبير الذي ما فتئت تقوم به في بيتها؛ حيث كان على عاتقها تربية الأبناء على قيم الجماعة (الصدق، والشجاعة والتضحية، والاستقامة...)، وتقريبهم من اللغة الأم، فقد تبلورت أسطورة موازية لفضاء الحكيم تقول إن من يسرد الحكاية الشعبية في النهار يفقد شعره، فكانت لتدرا عنها هذا الخطر الداهم تفضل رواية حكاياتها ليلا.

ت- **أخصائص المضمونية للحكاية الشعبية الأمازيغية بالأطلس المتوسط المركزي**
تعالج الحكاية الأمازيغية بالأطلس المتوسط المركزي قضايا متعددة ومتباينة، يتماهى فيها المضمون الفكري والدلالي، ويتداخل فيها البعد السوسولوجي بالنفسي والقيمي، ومن بين هذه القضايا:

• **ذكورية المجتمع الأمازيغي الأطلسي أسرة ومجتمعاً وسلوكاً:** حيث تستهدف جلّ الحكايات السارية بالمنطقة تحسين صورة الذكر/الرجل (طفلا، وشابا، وزوجا، وأبا...). وتشويه صورة المرأة والتقليل من شأنها (زوجة، وأما، وعجوزا...). ومن أمثلة ذلك: حكاية "تَامْطُوطُ نُوْ وَزْدَامُ" (زوجة الحطاب) التي تجعل الرجل مركز الحياة وسبب رخاء الأسرة وحكاية "أَدْحُونُو" (الحن) حيث تبدو قسوة زوجة الأب مهيمنة على حنان الأب. والانتصار لظاهرة تعدد الزوجات والقول إن الرجل الأمازيغي الأطلسي رجل مزواج، مما

يخلق تطاحنا كبيرا بين الزوجات وهلاك الزوجة الشريفة في النهاية (حكاية "أدجنون" (الجن) وحكاية "عيشة تاملت" (عيشة الصغيرة)).

● **تَقَابُلُ الْحَيْرِ وَالشَّرِّ:** حيث تقوم أغلب الحكايات على ثنائيات تقابلية (حكايات "بونيّة دُ وار نيت" (ذو النية الحسنة/ذو النية السيئة)، و"أوشن دُ بينسي" (الذئب/القنفذ) و"إزم دُ وعيول" (الأسد / الحمار)...) .

● **هَيْمَنَةُ تِيْمَةِ الْحَوْفِ عَلَى الْمَضَامِينِ الْحِكَائِيَّةِ:** بسبب تداخل المؤلف مع الغريب، والمعقول واللامعقول، والواقع واللاواقع، ومن أمثلة ذلك: سقوط الأسد والغولة مقابل خوف البطلة وأبيها منهما في حكاية "تاجضيضت ن وعانيم" (عصفورة القصب) واستحضار عالم الجن بما هو غريب وعجيب ومجهول في حكاية "أدجنون" (الجن).

● **التَّرْكِيزُ عَلَى البُعْدِ الفِلاحيِّ لِلإنسانِ الأمازيغيِّ:** ما دام الراوي والمتلقي كلاهما ينتميان إلى هذه البيئة البدوية الفلاحية (الصّيد، والقنص، والرعي، والحطب، وسيادة فضاء البادية والجبل...) .

● **التَّنَاصُ:** تلتقي الحكاية الشعبية الأمازيغية، لا سيما في بعض أصنافها (الحكايات الاجتماعية وحكايات الحيوانات) مع الكثير من الحكايات العالمية، ومن أبرز الأمثلة التي تشهد على ذلك حكاية "تامطوط ن ونزدام" (زوجة الحطاب) مع حكاية "السلطان والصياد" الموجودة في كتب التراث العربي "ألف ليلة وليلة"، وحكاية (تامفراط ن بيغد (La balayeuse des cendre)) التي تقابل حكاية "ساندريلا" (Cendrillon) العالمية. فرغم التنوع الثقافي الذي يرجع في جانب كبير منه إلى التباعد الجغرافي وإلى الخصائص التي تمتاز بها البيئات الاجتماعية⁽²⁶⁾، فإننا لا نحتاج إلى افتراض وجود هجرات أو حروب، إذ يكفي فقط أن ترسو سفينة، أو يُشترى عبدٌ لتفسير انتشار الحكايات وسهولة انتقالها⁽²⁷⁾. ويدل ذلك على مرونة الثقافة الأمازيغية في تعاملها مع الثقافات الشعبية العالمية، وعمقها الكوني والإنساني، وفتحتها وقدرتها على المثاقفة⁽²⁸⁾. غير أنّ العديد من النصوص الحكائية الأمازيغية هي أقرب من نظيرتها الأوروبية الغربية منها للعربية المشرقية بسبب الفترة

الاستعمارية والتجارة التاريخية التي عرفتها المنطقة، والتي تعود، على الأقل، لقرنين قبل الميلاد، عندما اجتاح الرومان إفريقيا الشمالية، وتمكنوا، رغم المقاومة الشرسة للأمازيغ، من فرض لغتهم وثقافتهم⁽²⁹⁾.

• **الإشادة بالمثل العليا والقيم الفاضلة:** مثل: الصدق، والشجاعة، والكرم والإخلاص، والحب، والفتنة، والتضحية، والإيثار... (قيم الصدق والإخلاص في حكاية "بُونَيْتْ دُ وَاَرْ نَيْتْ" (ذو النية الحسنة وذو النية السيئة)، وقيم الثقة بالنفس والشجاعة والفتنة في حكاية "تَاخْضِيضْتْ نْ وِعَانِيْم" (عصفورة القصب)...).

• **وصف الوجدان الجماعي الأمازيغي الأطلسي:** حيث تشخص الحكاية الشعبية هموم القبيلة "جماعت/تاقيلت"، وتزود الإنسان الأمازيغي الأطلسي بخبرات وتجارب وثقافات متعددة تمنحه الإحساس بالانتماء إلى الجماعة، وهو ما تحيل عليه مضامين حكايتي "تَاخْضِيضْتْ نْ وِعَانِيْم" (عصفورة القصب) و"إِزْمْ دُ تَمْطُوطْ" (الأسد والمرأة)).

ورغم كل هذه الأبعاد المضموتية، تتباين المحتويات الحكائية في منطقة الأطلس المتوسط من فترة إلى أخرى تبعا للواقع الاجتماعي السائد، ولو أنها لا تخرج عن الإطار العام الآتي:

| محتويات أخلاقية | محتويات سياسية | محتويات اجتماعية |
|--|---|---|
| صراع الخير والشر: حيث تأتي الخاتمة معبرة عن تطلعات الإنسان الأطلسي في انتصار الخير وتحقيق العدالة أو امتلاك الجاه أو المال. | التضحية في سبيل الجماعة وتجسيد الشعور بالانتماء نحو القبيلة والوطن، لذلك ينتقل الزاوي بين الحواضر والقرى متجاوزا كل الحدود كأنه في بلد واحد. | معالجة قضايا سوسيوثقافية واقتصادية كثيرة: الفقر والجوع والظلم والعدل والمساواة والحرية... |

(ج.2): المضامين الحكائية الشعبية الأمازيغية بالأطلس المتوسط المركزي

2-3- تصنيفُ الحكايةِ الشعبيّةِ الأمازيغيّةِ المَغرِبيّةِ بالأطلسِ المُتوسِّطِ المَركِزيِّ

يعدّ سؤالُ التّصنيفِ من المطبّات الصّعبة التي تواجه كلّ دارسٍ للحكاية الشعبيّة عامّة ولذلك كثرت التّصنيفات، وتعدّدت الأنواع، وتداخلت الحكايات، وتشابكت المحتويات... ولعلّ من بين أهمّ التّصنيفات المقترحة، في هذا السّياق، التقسيم الثنائي الذي جاءت به ليلي قريش، تبعا لموضوعها وهدفها: حكاية واقعية وأخرى خرافية تعتمد على الأساطير القديمة⁽³⁰⁾.

وقد يكون المعيار التّصنيفي متعلّقا بالموضوع أو الطّول أو الغاية... فتكون الحكايات دينيّة، أو غيبية، أو عاطفيّة، أو حكايات الحيوانات، أو الفطنة والاعتبار، أو الفكاهة والتندر أو السّحر والجنّ... لكنّ هذا التّصنيف غير ثابت لاحتواء نصوص أغلب الحكايات على هذه العناصر مجتمعة في نسق حكائيّ واحد. وهو ما جعل بعضهم يذهب إلى حصر الحكاية الشعبيّة في الأشكال الآتية: الحكاية الغريبة المثيرة للخيال، والحكاية الأسطوريّة المعنيّة بالجنّيات، والحكاية الواقعيّة، والحكاية الماحنة التي تكشف عن العلائق الحميميّة بين الجنسين، والحكاية الكليّة، والحكاية الغنائيّة، والحكاية الفخرية⁽³¹⁾. ولذلك يبدو كلّ تصنيف أمرا لا يخلو من تعسّف، مهما كان المعيار التّصنيفي. وبناء على ذلك، يمكن "تجاوزا" تصنيف الحكاية الشعبيّة الأمازيغيّة الأطلسيّة إلى صنفين كبيرين، يرتبطان بجديّة الحكاية ومدى فائدتها؛ إذ يوجد نوع هزليّ يكثر فيه الخيال، وتتكلم فيه الحيوانات، وتندخل فيه الجنّيات والغيلان، ويغلب عليه طابع الخيال والأسطورة، وهو الصّنف الأكثر سيادة وانتشارا، وما يفضّله الأطفال. ويوجد نوع آخر جادّ وهادف تستخلص منه العبر، وإن كان فيه بعض اللّهو ممّا يفضّله الكبار في مجالسهم، ويُقصد منه، أحيانا، إظهار حجج دامغة، عند اللّجوء لحلّ المشاكل الداخليّة للقبيلة أو بين الرّوجين، فتثبت لأحد الطرفين حدوث مثل هذه القضية، ومن ثمّ حلّها بالشّكل الذي ترويّه الحكاية (ما يسمّى في البلاغة الحجاجيّة "الحجاج بالإخبار"). ومن أمثلة الحكايات الأمازيغيّة الشعبيّة بالأطلس المتوسّط المركزيّ التي تستجيب لهذا التّصنيف:

| الحكايات الجادة | الحكايات الهزلية |
|---|---|
| <p>- حكايات اجتماعية (حكاية "بُونَيْتْ دُ وَاژ نَيْتْ" (ذو النية الحسنة وذو النية السيئة)</p> <p>- حكايات تربوية أخلاقية "كِرَاضُ نُ يَمْدُوكَال" (الأصدقاء الثلاثة).</p> | <p>- حكايات خرافية (حكاية "تَاخْضِيضْتُ نُ وَاغَانِيم") (عصفورة القصب)، وحكاية "تَاخْضِيضْتُ نُ وَاي" (عصفورة الغنم) وتَاْمُفْرَاطُ نُ يِيغْدُ (كانسة الرماد) وحكاية "أَدْجُونُ" (الجن).</p> <p>- حكايات الحيوانات (حكاية "إِزْمُ دُ تَمَطُوطُ" (الأسد والمرأة)، وحكاية "أَعْيُولُ دُ يَنْسِي" (الحمار والقنفذ)، وحكاية "تَاْمَطُوطُ نُ وَنَزْدَامُ" (زوجة الحطاب)؛</p> |

(ج.3): تصنيف الحكاية الشعبية الأمازيغية بالأطلس المتوسط المركزي

3- أَمِيَّةُ الْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ بِالْأَطْلَسِ الْمُتَوَسِّطِ الْمَرْكَزِيِّ وَوَطَائِفُهَا

تجلى أهمية الحكايات الشعبية في كونها جزءا من معتقدات الأمازيغ وثقافتهم وعاداتهم، حيث ابتدعها الخيال الشعبي الأطلسي للتعبير عن حكمته وتجربته الطويلة في تصوير الحياة وأماط العيش. وصار يعتمد عليها في إثراء اللغة الأم، وتنمية الإحساس بالجمال، وترسيخ القيم الثقافية، وتأسيس العلاقات الاجتماعية، والمحافظة على الموروث الجماعي. ومن ثم فقد ساهمت في إيجاد الحلول المناسبة لجملة من المشكلات الاجتماعية التي تحبب فيها المجتمع المحلي، كما ملأت فراغا كبيرا في الحياة الأدبية والثقافية. ويرتبط وجود الحكايات الشعبية بهذه المنطقة بما تؤديه من وظائف كثيرة ومختلفة، فقد كانت وما تزال تساهم في تكوين الإنسان الأمازيغي الأطلسي وتحضيره لحوض غمار الحياة، فحضرت في كل شؤون القبيلة تربوياً، وسياسياً، واجتماعياً... ومن خلال البحث في الموضوع لاحظنا اختفاء الكثير من هذه الحكايات؛ إذ لم يبق متداولاً منها إلا النزر القليل في بعض القرى والمداشر النائية، وهو ما يعني ضمور جزء كبير من الوظائف الكثيرة التي كانت تؤديها لقرون طويلة خلت.

3-1- أَلْوِظِفَةُ الْبِيدَاغُوجِيَّةِ الْبِنَائِيَّةِ

ما دامت الحكاية في عمومها مرتبطة بالتصوّرات والمعتقدات والقيم المعنوية للحضارة فإنّ الحكاية الشعبية الأطلسية تعلّم التحلّي بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالقيم السامية فتساهم في العناية بالطفل الأمازيغيّ بهذا المجال الجغرافيّ معرفيًا ووجدانيًا ومهاريًا، في أفق جعله رجلا / امرأة صالحا(ة) لأسرته ومجتمعه. خاصّة أنّ عامله منفتح على واقع مرير وبيئة صعبة، والتعامل معه يحتمّ تجاوز الصّعوبات ومختلف الرّهانات والتحدّيات التي يطرحها فكانت الحكاية الشعبيّة بهذه الرّبوع الأطلسية هي السّباقفة إلى احتواء الوضع وتصحيحه حيث اتجهت إلى تربية النّشء تربية متوازنة عبر إشباعه بالأبعاد القيميّة المثاليّة من حفاظ على العادات والتقاليد، وتكريس انتصار الحقّ والخير، ونبذ الظلم والفساد في الأرض (حكاية "بُونَيْتْ دُ وَارْ نَيْتْ") (حكاية ذو النّيّة الحسنة وذو النّيّة السيّئة) وحكاية "تَاخْضِيضْتْ نُونْ وَعَانِيمْ" (حكاية عصفورة القصب)).

وللتأكيد على ضرورة التحلّي بالأخلاق الحميدة والصفات السّميحة، تصوّر الحكايات الأطلسية ((حكاية "تَاخْضِيضْتْ نُونْ وَعَانِيمْ") (عصفورة القصب)، و"تَامْفَرَاطْ نُونْ يِيغْدْ" (كانسة الرّماد)) البطل كأنّه شخصيّة مثاليّة، فتدفع المستمع / الطّفل الأمازيغيّ للتأثّر بهذه الشخصيّة والتأسيّ بها. لأنّ وظيفة القصّ تتمثّل في دعمه للمعتقدات، والقيم الاجتماعيّة الموروثة، والعادات، والتقاليد، وفي محافظته على استقرار النمط الحضاريّ...⁽³²⁾ كما تتسم بالطابع التّقديّ ذي الغاية التّعليميّة - التّربويّة، فتبرز بعض عيوب المجتمع الأمازيغيّ الأطلسيّ وجانبًا من آفاته الاجتماعيّة كالغدر والظلم والخيانة والنّميمة ... وتحاول إصلاحها بشتّى الوسائل (حكاية "كُرَاضْ نُونْ يِمْدُوكَالْ" (الأصدقاء الثلاثة)، وحكاية "بُونَيْتْ دُ وَارْ نَيْتْ" (ذو النّيّة الحسنة وذو النّيّة السيّئة) ... كما أنّها لا تهتمّ بإبراز العيوب الأخلاقيّة للمجتمع الأمازيغيّ فحسب، لكنّها تشير من ناحية أخرى إلى بعض القيم الإيجابيّة التي تراها السّاكنة المحليّة مؤدّية إلى الحياة الهادئة التي يمكن أن يعيشها الفرد في تفاعل تام⁽³³⁾.

3-2- أَلُوْطِيْفَةُ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ

تعدّ الحكاية خزّانا واسعا للموروث الشّفوي وللرّاسمال اللّاماديّ، وهي آليّة فنيّة وجماليّة يتشبّث من خلالها الإنسان الأمازيغيّ بالأطلس المتوسّط بهويّته وأصله في مواجهة كلّ أشكال الاستلاب والتّدجين الثّقافيين. فتساهم في تثقيفه بما تحمله من أخبار وثقافات السّابقين، سواء كانت مادّيّة (الملبس، والمأكل، والمشرب...)، أو لا مادّيّة (المعتقدات والعادات، والقواعد الأخلاقيّة، والقيم المثلى...). وتوضّح الحكايات المدرّسة جوانب متعدّدة من ثقافة الإنسان الأمازيغيّ بهذه المنطقة، وترسم صورا كثيرة لبعض طقوسه وممارساته اليوميّة وأشغاله اليديويّة الاعتياديّة: الارتباط الدائم بالسّهل والجبل، والأعمال الفلاحيّة البدويّة كصناعة الصّوف، ورعي الغنم والبقر، وتحضير الأطعمة، وجلب الحطب... وغيرها من الممارسات التي تعكس الحياة الحقيقيّة لأهل الأطلس المتوسّط المركزيّ، وهو ما يفتح عليه فضاء الحكيم في "تاجضيضت ن وعانيم" (عصفورة القصب) و"أدخون" (الجن).

3-3- أَلُوْطِيْفَةُ السِّيْكُوْتَرْفِيْهِ

تلبيّ الحكاية الشّعبيّة للإنسان الأمازيغيّ بالأطلس المتوسّط المركزيّ حاجات نفسيّة كثيرة؛ فهي تنفّس عن مكبوتاته ورغباته التي لا يمكن أن يعبر عنها في الواقع، لتعارضها مع القيم المجتمعيّة أو لأنّها تخرج عن حدود القدرة الذاتيّة المحدودة لطبيعته البشريّة، بحيث تمكّنه من تحقيق أحلامه وأهدافه بسرعة خارقة، وتخلق له عالما مثاليّا تزول فيه كلّ العوائق التي تحدّ من تحقيقه لذاته. ولا شك أنّ الخيال المغرق في تصوير الرّفاهيّة بهذه الحكايات هو نتيجة مباشرة للحرمان الكبير الذي كانت تعاني منه الطبقات الشّعبيّة إبان ظهور الحكاية (حكاية "تأمطوط ن ونزدام" (زوجة الحطّاب)، أو حين تغيّر جانب من تفاصيلها السرديّة، وهو ما يمكن إدراجه ضمن ما يسمّى "أحلام اليقظة"⁽³⁴⁾. فتكون الحكاية الشّعبيّة، بهذا المعنى تعبيرا عن أحلام الرغبات المكبوتة؛ إذ كان يُعتقد أنّ الأحلام كانت أصلا في نشأة الكثير من الأحداث أو الوقائع التي نجدّها الآن في الحكايات الشّعبيّة⁽³⁵⁾. وتزخر الحكاية الشّعبيّة

الأطلسية أو "ثانقيست" بالخيال الواسع والشخصيات المتنوعة التي أبدعها الإنسان الأمازيغي بهذه المنطقة. ولذلك كانت وسيلة لتهدئة النفس وتطبيب الخاطر وطمأنة القلوب. ولما كان الفقر من الظواهر الاجتماعية التي عانى منها وتجرع ويلاتها، فقد سعى دوما إلى تغيير الوضع إلى الأحسن، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك، فكان ينحو بالتالي نحو عالم الحكاية الشعبية للتعبير عن أحلامه ورغباته الدفينة، ويرسم لنفسه صور البيت الذي يحلم به بخدمة وأثائه ومأكولاته المتنوعة (حكاية زوجة الخطاب "ثامطوط ن و نردام" التي كانت تحلم بقصر مثل ذلك الذي هو للملك).

وتعتبر الحكاية في مجتمع الأطلس المتوسط المركزي وسيلة ترفيهية أساسية، خصوصا في أوقات الفراغ الطويلة وروتين الحياة لدى الإنسان الأمازيغي بهذه المنطقة، لذا ساهمت في تسليته وإسعاده منذ أقدم العصور، حيث كانت العائلات الأمازيغية تجلس بعد كل عشاء للسمر في فرح وشوق لتستمع للحكايات الشعبية الحافلة بالأحداث والتوادر المسلية. وكثيرا ما كانت مواضيع هذه الحكايات تتمحور حول البخل والمكر والخداع والحيلة، وتؤديها شخصيات آدمية وحيوانية في قالب هزلي ساخر (حكاية "أوشن د و غيول" (حكاية الذئب والحمار)). وقد لا تكون المتعة والترفيه من الحكاية المسلية فقط، بل قد ترد أيضا في مختلف صنوف الحكايات، وخلال مراحلها المختلفة، وحتى في الارتباط العاطفي الذي يظل مشدودا بين الراوي والمتلقي.

وعلى الرغم من تعدد هذه الوظائف، فهي تتكامل وتتداخل فيما بينها، لأن الحكاية الواحدة قد تؤدي وظيفة سيكولوجية لدى جماعة معينة، بينما قد تؤدي دورا بيداغوجيا لدى جماعة أخرى، وقد تكون باعنا على التسلية والترفيه لدى جماعة ثالثة، وقد تؤدي الوظائف جميعها في لحظة واحدة لدى جماعة رابعة. وهو ما يدل على تعددية الأبعاد الخفية ل"ثانقيست" وانفتاحها على عوالم غير محدودة.

4- استنتاجات

بعد فحصنا لوظائف الحكاية الشعبوية الأطلسية، وتوقفنا عند بعض أبعادها الوظيفية والدلالية، توصلت الدراسة للاستنتاجات التالية:

- عرفت الحكاية الشعبوية الأمازيغية بالأطلس المتوسط في الأزمنة العابرة رواجاً وازدهاراً كبيرين، لأنها وجدت الفضاء الخصب والظروف التي تحيا فيها، كما أنها لاقت التقدير من رواةها ومتلقيها، الأمر الذي انقلب رأساً على عقب في الوقت الراهن، حيث باتت تعرف تراجعاً كبيراً، ترتب عنه خفوت صوتها وتراجع الإقبال عليها ما خلا القليل النادر في بعض الدواوير والمداشر القصية، وضمن بعض المحاولات الفردية ذات الطابع الأكاديمي المعزول.

- ما شدّ الإنسان الأمازيغي الأطلسي للحكاية الشعبوية بمنطقة البحث هو ارتباطها الوثيق بواقعه اليومي وممارساته التقليدية، وهو ما تجسده تلك الموضوعات التي قامت بمعالجتها مثل الفقر، والظلم، واليتم...، حيث اتخذها الراوي منصة اجتماعية للإصلاح والدعوة إلى إزالة كلّ الحواجز التي تقف عائقاً أمام تحقيق الفرد لذاته.

- تتقاطع الحكاية الشعبوية بالأطلس المتوسط المركزي مع بقية الألوان الشعبوية الأخرى (المثل، والحكمة، والزجل...)، ومع الحكايات الشعبوية الأمازيغية في باقي مناطق ما أطلق عليه "تامازغا"، وحتى مع الحكايات العالمية.

- تعبّر الحكاية الشعبوية بمنطقة البحث عن التفكير الأسطوري والخرابي والطقوسي عند الإنسان الأمازيغي في التعامل مع الظواهر البشرية والطبيعية، وذلك قبل أن ينتقل إلى مرحلة العقل واللّوغوس والوضعية العلمية. وقد ارتبط بها بيداغوجياً ونفسياً وتنقيفياً واقتصادياً وترفيهياً...

- لا يتعارض استخدام الموروثات الشعبوية اليوم مع المستجدات العلمية والثقافية الحديثة بل يمكن أن يستمدجها ويكملها، لأنّ دراسة التراث، بوصفه حقيقة اجتماعية موضوعية، إنما هي دراسة في أبعاد الماضي وترسباته في الحاضر وأصدائه في المستقبل

وليس لأيّ مجتمع كيان أو تجسيد إلا من خلال هذا الموروث وتواصل أجياله عبر الزمن. لا سيّما أنّ أكبر خطر قد يواجه أيّ أمة هو أن تستلب باقتلاع جذورها وطمس هويتها والاستيلاء على تراثها وثقافتها.

5- تَوْصِيَّاتُ

تتعرّض الحكايات الشعبيّة في السنين الأخيرة لتهديد كبير سيقبّل من استدامة أدائها لوظائفها نتيجة سيوروات التغيير المستمرة التي ما انفكّ يمرّ بها المجتمع الأمازيغيّ الأطلسي حيث أضحت لا تستحضر إلا في مقامات ضيقة مرتبطة بالمناسبات الثقافيّة والفنيّة ذات الطابع الفولكلوريّ الاحتزاليّ والتبسيطيّ. وفي ظلّ هذا الانحسار، توصي الدراسة بالتشجيع على البحث في مجال الحكاية الشعبيّة بهذه المنطقة (جمعا وتدوينا وتحليلا)، والاقتداء بالمناطق الأمازيغيّة الأخرى كالريف وسوس والقبائل والشاوية والطوارق... التي تميّز بالسبق والتراكم والتطور في سائر الكتابات السردية (القصة، والرّواية، والمسرح...)، لذا وجب أخذ العبرة والتكثّل من أجل العمل والنضال بالكتابة والتأليف والتدوين، ردا لكلّ الهجمات، وكسبا لرهان مرحلة ما بعد ترسيم اللّغة الأمازيغيّة وصدور القوانين المنظمة لها في الوقت الذي صنفت فيه من لدن اليونيسكو من اللّغات والثقافات المهدّدة بالانقراض. كما توصي بضرورة استثمار وسائل الإعلام المختلفة في نشر الحكايات الشعبيّة الأطلسيّة ولم لا بلورتها في مسلسلات دراميّة أو كارتونيّة أو عرضها على خشبات المسرح، باعتبارها مرآة عاكسة للثقافة الأمازيغيّة والهويّة الحضاريّة المغربيّة، والعمل على دمجها في المناهج التعليميّة والأنشطة المدرسيّة، لما تحمله من نسق قيميّ ومعايير أخلاقيّة واجتماعيّة وثقافيّة للأجيال القادمة.

خَاتِمَةٌ

لقد فتحنا في هذه الدّراسة حافظة الثقافة الأمازيغيّة بالأطلس المتوسط المركزيّ، في محاولة منّا للبحث في أحد أهمّ عناصر التراث الشعبيّ اللامادّيّ، فتوصّلنا إلى أنّ الحكاية الشعبيّة بمنطقة الدّراسة تعكس حياة الساكنة المحليّة، وتعبّر عن أفكارهم وتصوّراتهم، كما

تحمل قيما ومضامين سيكواجتماعية وتاريخية كثيرة. فقد عرفها أمازيغ الأطلس المتوسط المركزي منذ زمن بعيد، سواء كانت جدية أو هزلية. وتناقلوها مشافهة جيلا إلى جيل حفظا ونقلًا وإبداعا. وبعد رده من الزمن، أخضعت للحجم والتدوين والتتعيد. ورغم أنها تشكل أحد أبرز مظاهر الثقافة المغربية الأصيلة، إلا أنها ما تزال موضوعا بکرا (جمعا وتدوينا ودراسة) بالنسبة للمحترفين النقدي والأكاديمي. وقد جاءت دراستنا، في هذا الإطار لتعمل على فحص بعض أبعادها الوظيفية والتصورية، لما لها من ارتباط شديد بواقع الإنسان الأطلسي.

الهوامش والإحالات

- (1) - الستكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت. 626هـ)، مفاتيح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1420هـ / 2000م، ص: 150.
- (2) - ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط وندم مرعشلي، دار لسان العرب بيروت، لبنان، ج: 2، 1991م، ج: 2، ص: 690.
- (3) - ابن سيدة الأندلسي، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تحقيق عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطي) وآخرين، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط: 2، ج: 3، 1424هـ/2003م، ج: 3، ص: 316
- (4) - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1972م، ج: 1 إستانبول، تركيا، ج: 1، ص: 100.
- (5) - نبيلة إبراهيم، 1991م، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار مكتبة غريب، القاهرة، ط: 1، ط: 1: ص: 19.
- (6) - عبد الحميد بورايو، 2007م، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، ص: 185.
- (7) - عبد الحميد بنونس، 1968م، الحكاية الشعبية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط: 1، ص: 11.
- (8) - عبد الملك مرتاض، القصة في الأدب العربي القديم، دار مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر، الجزائر، ص: 19 - 20.
- (9) - محمد غنيمي هلال، 1983م، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ص: 180 - 183.
- (10) - الجنس: الضرب من كل شيء، وهو من الناس ومن الطير، ومن حدود النحو والعروض والأشياء الجميلة... والجنس أعم من النوع، ومنه المجانسة والتجنيس، ويقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله.

- والحيوان أجناس: فالتاس جنس والبقر جنس والثاء جنس ... (ابن منظور، لسان العرب، دار صبح بيروت، لبنان، 2008م، ط:1، صص: 356 - 357).
- (11) - الجُنْس: الأصل، وفي المنطق: ما يدلّ على كثيرين مختلفين في الحقيقة، فهو أعمّ من النوع، فالحيوان جنس، والإنسان نوع ... (مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، 1980م، د. ط، ص: 121)
- (12) - عبد الملك مرتاض، 1998م، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت د. ط، ص: 22 - 23.
- (13) - سعيد يقطين، 1997م، قال الزاوي، البنيات الحكائيّة في السيرة الشعبيّة"، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط: 1، ص: 11 - 12.
- (14) - محمد أفضاض، 2007م، شعريّة السرد الأمازيغيّ، منشورات المعهد الملكيّ للثقافة الأمازيغيّة سلسلة الدّراسات والأبحاث، رقم: 5. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- (15) - فلاديمير بروب، مورفولوجيا الخرافة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للتأشيرين المتحدّين، الدّار البيضاء، 1986م، ص: 35.
- (16) - يسود مصطلح "تأخاجيث" في الرّيف، وهو قريب من الكلمة العربيّة "الأحجية" (اللّغز)، وقد تمّ تحويله من معنى حكاية الألغاز إلى الحكاية الشعبيّة، ومن ثمّ، لم يكن إطلاقه على الحكاية الشعبيّة صدفة، بل جاء استجابة لدواعي حفيّة، يعرب عنها التعريف اللّغويّ ذو الحمولة التّسلويّة التّرفيهيّة وهو الأمر نفسه الذي عرفه مصطلح "تقيسنت" السائد في الأطلس المتوسّط، والذي تمّ نخته من الكلمة العربيّة "القصة".
- (17) - محمد شفيق، 1987م، المعجم العربيّ الأمازيغيّ، أكاديميّة المملكة المغربية، سلسلة معاجم، الرّباط ط: 1، ج. 1، ص: 282.
- (18) - Miloud Taifi, Dictionnaire tamazight – français (parler Maroc central), Awal, l'Harmattan. P, 544.
- (19) - مفتاحه عمر وآخرون، 2017م، المعجم العامّ للغة الأمازيغيّة أمازيغيّ - فرنسيّ - عربيّ، مركز التهيئة اللّغوية، سلسلة قواميس ومعاجم رقم 13، مطبعة المعارف الجديدة، الرّباط، ص: 421 - 537 - 547.
- (20) - محمد شفيق، 1989م، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، دار الكلام للنشر والتوزيع، ط: 1، ص: 77.
- (21) - سعدي المولودي، 2018م، مداخل إلى الأدب الأمازيغيّ بالأطلس المتوسّط، منشورات جمعيّة أجدير إيزوران للثقافة الأمازيغيّة - حنيفرة، مطابع الرّباط نت، الرّباط، ط: 1، ص: 123 - 126.

- (22)-Faiza Jamali, *Le conte oral amazigh: Etude morpho-sémiotique, contribution à la collection et la traduction du corpus (parler d'Ichqirn- ElKbab)*, Thèse de doctorat sous-direction Ahmed Bachnou, soutenue à la faculté des Lettres et Sciences Humaines Sais, Université Sidi Mohamed Ben Abdella, Fès, 10 février 2016.
- (23) - طلال حرب، 1999م، أولية النصّ: نظرات في النقد والقصة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط.1، ص: 121.
- (24) - قول يزعم أنه منسوب لرئيس دولة جنوب إفريقيا الراحل نيلسون مانديلا (1918م - 2013م).
- (25) - مؤثّ الغول أي الغولة، وهي جنس من الشياطين والجنّ، زعمت العرب أنّ الغول في الفلاة يترأى للناس فيتغول تغولا، أي يتلون ألوانا كثيرة، ويضلّ الناس ويهلكهم (ثريا التيجاني، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري (واد سوف نموذجاً)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د. ت، ص: 108).
- (26) - كلود ليفي ستراوس، الإناسة البنائية (الأنثروبولوجية البنوية)، القسم الثاني، ترجمة حسن قبسي مركز الإنماء القومي، د. ط، بيروت، لبنان، 1990م، ص: 298.
- (27) - Berland, Claude, 1973, *Logique du Récit*, Paris, Poétique, Seuil, p. 52
- (28) - محمد أفضاض، 2007م، شعريّة السرد الأمازيغيّ، منشورات المعهد الملكيّ للثقافة الأمازيغيّة الزباط، ط: 1، ص: 101.
- (29) - René Basset, *Littérature populaire berbère*, New York, 1902, reprinted in *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915, p.46 - 48
- (30) - روزلين ليلي قريش، 1980م، القصة الشعبيّة الجزائريّة ذات الأصل العربيّ، م. س، ص: 29.
- (31) - رايح العوي، أنواع النثر الشعبيّ، منشورات جامعيّة، باجي مختار، عناية، د. ت، ص: 40.
- (32) - عبد الحميد بورايو، 1986م، القصص الشعبيّ في منطقة بسكرة، م. س، ص: 54.
- (33) - نبيلة إبراهيم، 1992م، قصصنا الشعبيّ من الرومانسيّة إلى الواقعيّة، ط: 1، دار غرب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص: 175.
- (34) - برونو بتلهام، التحليل النفسيّ للحكايات الشعبيّة، ترجمة طلال حرب، دار المروج، بيروت، لبنان 1985م، ص: 10 - 11.
- (35) - ثريا التيجاني، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائريّ (واد سوف نموذجاً)، م. س، ص: 134.